"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"

القبيلة والإثنية والدين

عبد الرحمان السالمي *

أدت (البداوة) دوراً رئيساً في حياة العرب والمسلمين عبر التاريخ. فقد كان هذا النمط للعيش والتصرف قوياً أو سائداً لدى شعبين كبيرين أسهما إسهامات أساسية في التجربة التاريخية الإسلامية: العرب والترك والأمازيغ، وقد عبّر الباحثون عنها أحياناً في دراساتهم عن نشوء الحضارات وسقوطها، ويعني بها البعض في الاكتساح والإحلال الحضاري في التاريخ الكلاسيكي للأمم والشعوب. والذين عالجوا هذا الموضوع في الأزمنة الحديثة أخذوا في اعتبارهم عند الحديث عن البدو والحضَر: الإشارات القرآنية، ونظرية ابن خلدون في العصبية، ثم دراسات ورحلات وملاحظات الجغرافيين والأنثروبولوجيين الغربيين في بلاد العرب والمسلمين في القرنين الأخيرين.

والواقع أن الإشارات القرآنية إلى البدو أو الأعراب متنوعة تستند إلى سلوك مجموعات كبيرة منهم تجاه النبي -صلى الله عليه وسلم- وتجاه الإيمان والإسلام والقرآن الكريم، لا تُدين نمط العيش البدوي بقدر ما تُدين -إذا صح التعبير- العقلية الأعرابية التي تأبى الانتظام في جماعة ومجتمع ودولة، وتميل للخصومة وتؤثر حياة الفقر والشظف بعيداً عن أنس الأسرة والمدينة والمصر. وهذا معنى دعوة القرآن الكريم إلى الهجرة، فالمفرد (هـ.ج.ر) في السبئية أي اللغة العربية الجنوبية قبل الإسلام يعني الاستقرار في مستوطن حضري، وبالتالي تسود علاقات جوار وودّ وتعاون بما يتعدى القرابة القريبة إلى فكرة الجماعة (المؤمنة) والمجتمعة على مبدأ واحد. وهكذا فالاجتماع في المصر والمدينة يتعدى الأغراض الدفاعية التي كان الاحتشاد بالمدينة ضرورياً من أجلها في سنوات الإسلام الأولى ذلك أن الدين الجديد كان ينشئ نمط حياة جديدة بلغة اليوم.

بيد أن كتاب النبي أو عهده في السنة الأولى لوصوله إلى يثرب (التي سماها فيما بعد المدينة) يشير إلى الآليات المركبة لعملية التحول إلى الحاضرة. فالهجرة تعني الاستقرار، لكنها لا تعني إلغاء التركيبة العربية الموروثة, فهناك فرق بين البداوة والقبيلة أو العشيرة. وفي كتاب المدينة ينشئ النبي -صلى الله عليه وسلم-مجتمع المؤمنين، فهم أي (المؤمنون والمسلمون) من أهل يثرب، والمهاجرون يشكلون (أمة من دون الناس) وهذه الجماعة هي

التي تتولى عبر رئيسها وكبرائها مسائل العلاقات الخارجية مع الجماعات القبلية والحضرية الأخرى. لكن العشيرة القرابية تظلُّ تلعب أدواراً حقوقية وتضامنية: (فبنو عوْف -مثلاً- على ربعتهم يتعالون بينهم) وكذا سائر البطون القبلية من الأوس والخزرج. وهكذا فالتجربة الإسلامية الأولى تتعامل مع الواقع لكنها تضع مثالاً آخر لاجتماع جديد في وحدته أو مرجعيته العليا وهذا الاجتماع الجديد يتبنى ما هو إيجابي وطيب من قيم التّواد القرابي، ورعاية ذوي الأرحام، والتكافؤ بين الغنم والغرم -ثم يرتب على ذلك إطاراً يتجاوز هذه العصبية بالإيمان وبالسياق السياسي وبالجماعات المدينية الجديدة.

على أن القرآن الكريم في اهتمامه بالسلب والإيجاب، بالتجربة الأولى أو المقابلة الأولى بين الإسلام والبداوة لا يكتفي بذلك، بل يدخل سائر أنماط العيش الإنساني ضمن قانونين اثنين: التدافع والتعارف، فالتدافع الناجم عن التنافس وشهوات الغلبة والسيطرة ليس شراً على إطلاقه، لأنه يستحث المهاجمين والمتضررين وإن انتموا لجماعات مختلفة على التجمع والتضامن للدفاع عن النفس والمصالح (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً) سورة الحج (الآية 40)، فالتدافع بهذا المعنى نزوع بشري للتوازن في النهاية بعد أن يفشل المتحدي في السيطرة أو لا يستطيع تحقيق أغراضه. ولا شك أن هذا التدافع أو الاجتماع من أجل الهجوم أو الدفاع تكون العصبية قوامه من الجانبين وهي عصبية قبلية أو عشائرية أو بالمصطلح الحديث: إثنية.

وقد أراد باحثون سوسيولوجيون وأنثروبولوجيون غربيون التفرقة بين الاجتماع الغربي والاجتماع العربي الإسلامي بأن الأول وحدوي واندماجي وأن الثاني انقسامي ومتشرذم ولذا -وبحسب هذه النظرة- ينتظم الاجتماع الأول في دول بينما يفشل الثاني الانقسامي في إقامة الدولة المساواتية أو السواسية لتعدديته وتشرذمه - وهو محتاج من أجل الاستقرار والاستمرار إلى أحد أمرين: إما السلطة الاستبدادية القامعة للجميع، أو الحفاظ على السلام الهش بالتفاوض والتعاون والتوازن المستمر. والحق أن الاجتماع الإنساني متنوع لكن الوحدات ليست اندماجية هناك وانقسامية هنا، وإذا كانت هناك تناحرات أساسها قبلي لدى العرب والأفارقة اليوم فإن هناك تناحرات ونزاعات أساسها إثني أو قومي لدى الأوروبيين، أسست لحروب عالمية!.

ولذا فإن القرآن الكريم يعرض حلاً للنزاعات ذات المعنى الإثني (ضمن الشعوب) وذات المعنى العصبي (ضمن القبائل) وهو التعارف أي الاعتراف المتبادل بالخصوصيات وبالمصالح، ولذا يفسر البعض قوله تعالى: (لتعارفوا) الحجرات (الآية 13) بأن اللام هنا هي لام العاقبة أو الصيرورة نحو قوله تعالى في قصة موسى وفرعون: (ليكون لهم عدواً وحزناً) القصص (الآية 8)، فالاختلاف متجذر في البشرية (وجعلناكم)، وإنما التعارف هو السبيل إلى النهوض، فإذا كانت الاختلافات والتنوعات تضع قانون التدافع في المقدمة أو الواجهة فإن التقدم الإنساني العلمي والسياسي والاقتصادي يفرض -من أجل استمرار البشرية ومن أجل الخروج من الحروب الجزئية والشاملة- قانوناً آخر أو رؤية أخرى أو

منطقاَ آخر هو التعارف، وهذا نقيض الغلبة والعلو والاستضعاف أو الاستكبار. فالمنطق الأول أو منطق الغلبة يقتضي أن يكون الاختلاف بين الذكورة والأنوثة وبين الشعوب والقبائل باعثاً على الخصومة والحروب وعدم الاستقرار، أما المنطق الثاني والذي يتفق وتقدم البشرية وتوازن مجتمعاتها وثقافاتها ودولها فهو منطق التعارف الذي أساسه الحوار العقلاني المنطلق من تسليم متبادل بالخصوصيات والتمايزات وصولاً للاغتناء باختلاف الآخر، وليس السعي للخلاص منه أو إلغائه. ولدينا تجارب غير مكتملة ولكنها واعدة في مجتمعات الإسلام الكلاسيكية المتعددة الأعراق والأديان (ومنها التجربة الأندلسية)، كما أن تجربة الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان: يمكن أن تشكلا أساساً لتجاوز التدافع نحو الحوار فالتعارف.